الفصل الرابع

مع الأئمة العظماء

- الإمام أبو حنيفة.
- الإمام مالك بن أنس.
- الإمام الشافعي.
- الإمام أحمد بن حنبل.
- الإمام سفيان بن سعيد الثوري.
- الإمام علي زين العابدين.
- الإمام ليث بن سعد بن عبد الرحمن.
- الإمام أبو عمرو الأوزاعي.

(1)

الإمام أبو حنيفة يموت في السجن

عرض الخلفاء والولاة والأمراء مناصب الدولة على الإمام أبي حنيفة فأبى أن يتولى واحداً منها، فضربوه وعذبوه وحبسوه على هذا الإباء فأصر عليه حتى مات مسجوناً من جراء امتناعه من أن يتولى القضاء.

◄ روى الخطيب عن الربيع بن عاصم قال: أرسلني يزيد بن هبيرة والي العراقيين لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فقدمت له أبا حنيفة فأراده على بيت المال فأبى فضربه أسواطاً.

◄ وعن أبي حفص الكبير وغيره قالوا: كان ابن هبيرة والياً على العراق في زمن بني أمية، فظهرت الفتنة فجمع ابن هبيرة فقهاء العراق ببابه فيهم (ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وداود بن أبي هند) وغيرهم، فولى كل واحد منهم شيئاً من عمله، وأرسل إلى أبي حنيفة ليكون على خاتمه، ولا ينفذ كتاب إلا من تحت يد أبي حنيفة ولا يخرج شيء من بيت المال إلا من تحت يد أبي حنيفة، فامتنع أبو حنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يفعل ليضربنه.

فقال له جماعة هؤلاء الفقهاء: إنا ننشدك الله أن تملك نفسك فإنا إخوانك وكلنا كاره لهذا الأمر لم نختره، ولم نجد بدًّا من ذلك، فأبى وقال:

لو أرادني أن أعد له أبواب المسجد لم أفعل، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم، وأختم أنا على ذلك الكتاب؟ فوالله لا أدخل في هذا أبداً.

فحبسه صاحب الشرطة جمعتين لم يضربه ثم ضربه أربعة عشر سوطاً.

◄ روى الخطيب عن عبد الله بن عمرو قال: كلم ابن هبيرة أبا حنيفة في أن يلي قضاء الكوفة فأبى، فضربه مائة سوط وعشرة أسواط، في كل يوم عشرة أسواط، وهو على الامتناع، فلما رأى ذلك خلى سبيله.

◄ روي عن بشر بن الوليد قال: كان أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين أرسل إلى أبي حنيفة وأراد أن يوليه القضاء فأبى.

فحلف عليه أبو جعفر ليفعل، فحلف أبو حنيفة لا يفعل. فقال الربيع لأبي حنيفة: ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف؟ فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني على كفارة يميني، فأمر بحبسه، ثم دعا به فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال أبو حنيفة: أصلح الله أمير المؤمنين، يا أمير المؤمنين اتق الله، ولا تشرك في أمانتك من لا يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ فلا أصلح لذلك.

فقال أمير المؤمنين: كذبت أنت تصلح لذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين قد حكمت على نفسك، إن كنتُ صادقاً فقد أخبرت أمير المؤمنين أني لا أصلح، وإن كنت كاذباً فكيف يحل لك أن تولي قاضياً كذاباً؟ ومع ذلك فإني رجل مولى، ولا تكاد العرب ترضى بأن يكون عليهم مولى، فأمر به إلى السجن ولبث به إلى أن مات ودفن في مقابر الخيزران.

هؤلاء أئمتنا العظماء..

لم ترهبهم السياط ولا السجون.. فتدفعهم إلى قبول الدنية في دينهم.. ولهذا خلدوا على الدهر.. واختارهم المسلمون أئمة للدين يأخذون عنهم ويقلدون..

وعلى كل داعية مسلم أن يتمثل بهؤلاء ويقتدي بهم وبأمثالهم.

(2)

الإمام مالك بن أنس عالم المدينة

صلاحه وتقواه

وأما تقواه لربه، ومعرفته بعظيم قدر نبيه، وصحبه وآله، وتعظيمه لشريعته واتباعه لسنته ونصيحته لأمته، وإنفاذ همته، وكمال مروءته، وكمال هيئته ووفور هيبته، فقد كان من ذلك على غاية من التحفظ وفي نهاية التيقظ.

◄ قال ابن وهب: قيل لأخت مالك: ما كان يشغل مالكاً في بيته؟

قالت: المصحف والتلاوة.

◄ وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ويصفر حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له: ما السبب في ذلك؟ فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون، لقد كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر.

◄ وقال القاضي عياض رحمه الله: كان مالك لا يركب في المدينة دابة ويقول:

أستحي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابتي..

◄ وقد روي: أن مالكاً رضي الله عنه ما جالس سفيهاً قط، وهذه خصلة لا تعرف لأحد غيره، وكان كثير الصلاة والأذكار والأوراد في الأسحار، والدروس في العلوم والتكرار.

زهده وورعه

◄ قيل: لما اشتهر مالك رضي الله عنه بالعلم، وانتشر وصفه وذكره في البلاد، حملت إليه الأموال فكان يفرقها على أصحابه، وأصحابه يفرقونها في وجوه الخير، موافقة لفعله، وكان يقول: ليس الزهد فقد المال، وإنما الزهد فراغ القلب منه.

◄ ومما يؤثر عنه: أن المهدي أمير المؤمنين سأله وقال له: هل لك دار؟ فقال: لا، ولكن أحدثك: سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمٰن يقول: نسب المرء داره.

◄ وسأله الرشيد: هل لك دار؟

فقال: لا، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار، وقال: اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الرحيل إلى بغداد قال له: ينبغي لك أن تخرج معنا، فإني عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن.

فقال له: أما حمل الناس على الموطأ فليس إلى ذلك سبيل، لأن أصحاب النبي ﷺ افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند أهل كل مصر علم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اختلاف أمتي رحمة**».

وأما الخروج معك فلا سبيل إليه، قال رسول الله ﷺ: «**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**»، وقال رسول الله ﷺ: «**المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد**». وهذه دنانيركم كما هي، إن شئتم فخذوها، وإن شئتم فدعوها.

(3)

الإمام الشافعي وحسن معاشرته لزوجته

◄ كان الإمام الشافعي ﷺ رقيق المعاشرة مع زوجته، حتى بلغت به الرقة درجة أن كنى ابنه منها باسم جدها سيدنا عثمان بن عفان ﷺ فكناه (بأبي عثمان محمد) ولم يكنه بأبي إدريس أو الشافعي.

وكان مثلاً أعلى للحياة الزوجية الصريحة، حيث كان يوصي زوجته ألا تعارضه في القول عند غضبه، مخافة أن يمحو أثر هذه المعارضة ما في قلبه من المحبة لها فيقول:

خذي العفو مني واستديمي مودتي ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
فإني وجدت الحب في القلب والأذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

◄ أقام الشافعي في اليمن، يحكم بين الناس بالعدل، ملازماً الإمام يحيى ابن حسان صاحب الإمام الليث بن سعد، غير منقطع عن طلب العلم وتدريسه لحظة، ولم يدع الفرصة تفوته مدة وجوده في هذه البلاد، بل تعلم فيها علوم الفراسة، وهي علوم خاصة ببلاد اليمن وقتها، وقد تفوق فيها.

◄ ثم إن تقدم الشافعي في اليمن، ومكانته عند الوالي والناس، وعلو قدره في العلوم والمعارف، سواء كانت فقهية، أو رياضية، أو فلسفية، أو طبية، أو فلكية... إلخ، كان سبباً في حقد صدور الحاسدين عليه، فوشوا في حقه للخليفة هارون الرشيد وهو في بغداد، واتهموه بأنه رئيس حزب (العلويين) في اليمن، وأنه يدعو إلى عبد الله بن الحسين، فأرسل الخليفة أحد قواده إلى اليمن، فبعث له ذلك القائد بكتاب يخوفه من (العلويين)، ويذكر له فيه الشافعي ويقول عنه: إنه يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بحسامه وسنانه، وإن أردت يا أمير المؤمنين أن تبقي الحجاز لديك، فاحملهم إليك، فبعث الرشيد إلى والي اليمن يأمره بأن يحمل (العلويين) إلى بغداد ومعهم الشافعي مكبلاً بالحديد.

◄ اعتقل العلويون وفي جملتهم الشافعي، ووضع في رجليه الحديد تنفيذاً لأوامر الخليفة، وأرسلوا إلى بغداد فدخلوها في غسق الليل، وأحضروا بين يدي هارون الرشيد ليلاً، وكان جالساً من وراء ستار، وكانوا يقدمون إليه واحداً واحداً، وكل من تقدم منهم قطع رأسه، كل ذلك والشافعي بالباب يدعو ربه بدعائه المشهور وهو: (اللهم يا لطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير).

ولما جاء دوره حملوه إلى الخليفة، وهو مثقل بالحديد، فرمى من بحضرة الخليفة بأبصارهم إليه.

فقال الشافعي: السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته - ولم يقل: ورحمة الله.

فقال الرشيد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها، ومن العجب أن تتكلم في مجلسي بغير أمري.

فقال الشافعي: إن الله تعالى قال في كتابه العزيز:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

وهو الذي وعد ووفى، فقد مكنك في أرضه، وأمنتني بعد خوفي، حيث رددت عليَّ السلام بقولك (وعليك رحمة الله) فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: وما عذرك من بعد ما ظهر أن صاحبك يريد عبد الله بن الحسين، طغى علينا وبغى، واتبعه الأرذلون، وكنت أنت الرئيس عليهم؟

فقال الشافعي: أما وقد استنطقتني يا أمير المؤمنين فسأتكلم عن العدل والإنصاف، لكن الكلام مع ثقل الحديد صعب، فإن جدت عليّ بفكه عن قدمي، جثيت على ركبتي، كسيرة آبائي عند آبائك، وأفصحت عن نفسي، وإن كانت الأخرى، فيدك العليا ويدي السفلى، والله غني حميد.

فالتفت الرشيد إلى غلامه (سراج) وقال له: خلِّ عنه يا سراج، فأخذ سراج ما في قدميه من الحديد، فجثا الشافعي على ركبتيه وقال: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

حاشا لله أن أكون ذلك الرجل، لقد أفك المبلِّغ فيما أبلغك به يا أمير المؤمنين، إن لي حرمة الإسلام، وذمة النسب، وكفى بهما وسيلة، وأنت أحق من أخذ بأدب كتاب الله تعالى، أنت ابن عم رسول الله ﷺ الذابِّ عن دينه، المحامي عن ملته، فتهلل وجه الرشيد، ثم قال: ليفرخ روعك (ليزل روعك)، فإنا نراعي حق قرابتك وعلمك، ثم أمره بالقعود فقعد، وأخذ الرشيد يسأله أسئلة في علوم القرآن، وهو يجاوبه بما أدهشه والحاضرين، وسره سروراً عظيماً، ثم قال له: عظني يا شافعي.

فأخذ الشافعي يعظ الرشيد وعظاً تصعدت له القلوب في الصدور، حتى بكى الرشيد بكاءً شديداً، فهاج الحاضرون، فنظر إليهم الشافعي غضباً واستمر في وعظه.

ولما أفاق الرشيد من بكائه قال: أمرنا لك بصلة ألفي دينار؛ فنهض الشافعي وقال: كلا والله يا أمير المؤمنين، لا يراني الله عز وجل، وقد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عنها، ثم استأذن في الانصراف فأذن له وخرج.

لم يكن الشافعي بالرجل البسيط، وإنما هو يدري مقدار مسؤولية الاعتذار عن عدم قبول صلة الخليفة.

فبعد أيام قليلة طلب الإذن في مقابلة الرشيد، فأذن له. وفي هذه المرة أمر له الرشيد بألف دينار، فتقبلها الشافعي، ودعا لأمير المؤمنين فضحك الرشيد وقال: ما أفطنك، قاتل الله عدوك.

ولما خرج الشافعي أمر الرشيد غلامه (سراجاً) باتباعه حتى يرى ماذا يفعل بالمال، فجعل الشافعي يفرق ذلك المال قبضة قبضة على رجال حاشية القصر، حتى انتهى إلى خارج القصر وما معه إلا قبضة واحدة، فدفعها إلى سراج وقال له: انتفع بها.

فرجع سراج إلى الرشيد وأخبره بما رأى. فقال الرشيد: ألا إن بني المطلب ما فارقوا رسول الله ﷺ في شرف ولا في سخاء.

حضوره مجلس العلماء

وأقام الشافعي في بغداد يجالس علماءها، ويحضر عليهم، كالإمام وكيع بن الجراح، وأبي أسامة وغيرهما ويصنف التصانيف، وأتم فيها وضع كتابه القديم، وأقبل عليه الناس، وأصبحت حلقته أكبر الحلقات، فأوغر صدور بعض علماء العراق، وبخاصة قلوب المقربين منهم إلى الخليفة، فاتفقوا فيما بينهم أن يضعوا عدة مسائل على شكل الألغاز التي توضع لمقياس قوة الذكاء عند الناس، ثم يطرحونها على الشافعي أمام الخليفة في مجلس المناظرة ليعجزوه، وكان الرشيد يحضر هذا المجلس للفكاهة والعلم.

وبعد أن طرحوا عليه الأسئلة، وأجاب عليها الشافعي أجوبة سديدة، تبسم الرشيد وقال: «أكثر الله في أهلي مثلك» وأمر له بألفي دينار، فتسلمها الشافعي وفرقها على خدم القصر وحاشيته كعادته رضي الله عنه.

امتناعه عن تولية القضاء

على أثر هذه المناظرة أراد الرشيد أن يولي الشافعي قضاء اليمن، قال الشافعي: أطال الله عمر أمير المؤمنين، لا حاجة لي في ذلك؛ ولكن حاجتي أن يكون لي نصيب من سهم ذوي القربى في مصر إن سمحت مكارمه.

فقال الرشيد: هو كذلك إن شاء الله.

مكانة الشافعي

ومن ذلك الحين أخذت مكانة الشافعي تزداد لدى الخليفة، وأصبح في بغداد موضع إكرام أمرائها وعلمائها وساداتها طول مدة إقامته فيها، حتى بلغت الدرجة من احترامه أن مرض الإمام أحمد بن حنبل (ولا يجهل أحد من هو أحمد بن حنبل وما هي رتبته عند أهل بغداد) فعاده الشافعي في بيته، فنزل ابن حنبل من سريره، وأجلس الشافعي مكانه، وجلس هو على الأرض يسائله ساعة.

ولما أراد الشافعي الانصراف أركبه ابن حنبل دابته، ومشى تحت ركابه وهو مريض مخترقاً شوارع بغداد وأسواقها حتى أوصله إلى بيته.

(4)

الإمام أحمد ومحنة خلق القرآن

◄ لم يزل الناس بخير في عهد السلف الصالح يؤمنون بالله وكتبه ويعتقدون حقاً أن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق حتى ظهرت (المعتزلة) فقالت: (بخلق القرآن) وكانت تستر ذلك، فقد كان الرشيد يحارب كل من ادعى بخلق القرآن.

قال محمد بن نوح: سمعت هارون الرشيد أمير المؤمنين يقول:

بلغني أن بِشراً المريسي زعم أن القرآن مخلوق، عليّ إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحداً قط. فكان بشر متوارياً أيام هارون الرشيد نحواً من عشرين سنة حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة وكان من المحنة ما كان.

◄ فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين، فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسّنوا له القول بخلق القرآن، وكان يتردد في حمل الناس على ذلك ويراقب بقايا الأشياخ، ثم قوي عزمه على ذلك فحمل الناس عليه. وكان أحمد بن حنبل من أشد الناس معارضة لذلك، وأصيب بمحنة شديدة لامتحانه في هذه المسألة.

قصته مع المأمون

قال العلماء بالسير: كتب المأمون وهو بالرقة إلى إسحٰق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد بامتحان الناس فامتحنهم.

قال صالح بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: لما أدخلنا على إسحٰق بن إبراهيم قرىء علينا كتاب المأمون، فكان فيما قرىء علينا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هو﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فقلت: وهو السميع البصير.

قال صالح: فأجاب القوم جميعاً غير أربعة: أبي (أحمد بن حنبل)، ومحمد ابن نوح، وعبيد الله ابن عمر القواريري، والحسن بن حماد سجادة، ثم أجاب عبيد الله بن عمر، والحسن بن حماد، وبقي أبي ومحمد بن نوح في الحبس ثم ورد الكتاب من (طرسوس) بحملهما فحملا مقيدين.

◄ قال ميمون بن الأصبغ: كنت ببغداد فسمعت ضجة فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أحمد بن حنبل يمتحن، فأتيت منزلي فأخذت مالاً له فذهبت به إلى من يدخلني إلى المجلس فأدخلوني، فإذا بالسيوف قد جردت، وبالرماح قد ركزت، وبالتراس قد نصبت، وبالسياط قد طرحت، فألبسوني قباء أسود ومنطقة وسيفاً، وأوقفوني حيث أسمع الكلام، فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسي، وأتي بأحمد بن حنبل فقال له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول، ثم التفت إلى جلاد فقال: خذه إليك، فأخذه. فلما ضرب سوطاً قال: (باسم الله) فلما ضرب الثاني قال: (لا حول ولا قوة إلا بالله) فلما ضرب الثالث قال: (القرآن كلام الله غير مخلوق) فلما ضرب الرابع قال: (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فضربه تسعة وعشرين سوطاً وكانت تكة أحمد انقطعت فنزل السروال إلى عانته. فرمى أحمد طرفه نحو السماء وحرك شفتيه فما كان بأسرع من أن ارتقى السروال ولم ينزل. قال ميمون: فدخلت إليه بعد سبعة أيام فقلت: يا أبا عبد الله رأيتك يوم ضربوك قد انحل سروالك فرفعت طرفك نحو السماء، ورأيتك تحرك شفتيك فأي شيء قلت؟ قال: قلت: اللهم أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً.

◄ قال ابن أبي أسامة: يحكى لنا أن أحمد بن حنبل قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟ فقال: لا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا لازمة الحق.

◄ قال صالح بن أحمد: حمل أبي ومحمد بن نوح مقيدين فصرنا معهما إلى (الأنبار) فسأل أبو بكر الأحول أبي فقال: يا أبا عبد الله إن عرضت على السيف تجيب؟ قال: لا. ثم سيرا، قال: فسمعت أبي يقول: لما صرنا إلى الرحبة

ورحلنا منها - وذلك في جوف الليل - عرض لنا رجل فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل له: هذا، فقال للجمال: على رسلك، ثم قال: يا هذا ما عليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة ها هنا؛ ثم قال: أستودعك الله ومضى، قال أبي: فسألت عنه. فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الشعر في البادية: يقال له: جابر بن عامر يذكر بخير.

◄ وقال أحمد بن حنبل: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر الذي وقعت فيه أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق؛ قال لي: يا أحمد إن يقتلك الحق متَّ شهيداً، وإن عشت عشت حميداً، قال: فقوى قلبي.

فكان كما قال، لقد رفع الله ﷻ شأن أحمد بن حنبل بعدما امتحن بهذه المحنة وعظم عند الناس وارتفع أمره جداً.

◄ قال ابن الجوزي ﷺ: لقد بلغنا عن الشافعي ﷺ أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام يخبره بما سيلقى أحمد من الامتحان في خلق القرآن، ويأمره أن يُعلم أحمد بذلك.

◄ قال أبو جعفر الأنباري: لما حمل أحمد بن حنبل إلى المأمون فعبرت الفرات فإذا هو جالس في الخان فسلمت عليه فقال: يا أبا جعفر تعنيت؟ فقلت: ليس هذا عناء. وقلت له: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء، فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثم قال لي أحمد: يا أبا جعفر أعد عليّ ما قلت. فأعدت عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

◄ قيل: لما قدم أحمد للسياط أيام المحنة أغاثه الله برجل يقال له (أبو الهيثم العيار) فوقف عنده وقال: يا أحمد أنا فلان اللص ضربت ثمانية عشر ألف سوط لأقر فما أقررت، وأنا أعرف أني على الباطل، فاحذر أن تقلق وأنت على الحق من حرارة السوط، فكان أحمد كلما أوجعه الضرب تذكر كلام اللص، وكان بعد ذلك لم يزل يترحم عليه ويقول: رحم الله أبا الهيثم.

◄ قال أحمد بن غسان: لما حملت مع أحمد إلى المأمون تلقانا خادم وهو يبكي ومسح دموعه وهو يقول: عز عليّ يا أبا عبد الله ما نزل بك. قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط، وبسط نطعاً لم يبسطه قط، ثم قال: وقرابتي من رسول الله ﷺ لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقولا: إن القرآن مخلوق، فجثا أحمد على ركبتيه ولحظ السماء بعينيه ودعا، فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة، فأقبل علينا خادمه وهو يقول: صدقت يا أحمد (القرآن كلام الله غير مخلوق) لقد مات - والله - أمير المؤمنين، وكان قد لقيه قبل أن يدخل المدينة رجل من العباد فقال: احذر يا أحمد أن يكون قدومك شؤماً إلى المسلمين، فإن الله قد رضي بك لهم وافداً، والناس إنما ينظرون إلى ما تقول فيقولون به. فقال أحمد: حسبنا الله ونعم الوكيل.

رفع المحنة عنه

وقال ابن عياض رضي الله عنه: حبس الإمام أحمد رضي الله عنه ثمانية وعشرين شهراً وكان فيها يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه، وينخس بالسيف ثم يرمى على الأرض ويداس عليه.

ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم، وتولى بعده الواثق، فاشتد الأمر على أحمد وقال: لا أسكن في بلد ألحد فيه، فأقام مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل، فرفع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكرامه وإعزازه وكتب إلى الآفاق برفع المحنة عنه وإظهار السنة، وأن القرآن غير مخلوق، وخمدت المعتزلة، وكانوا أشرّ طوائف المبتدعة.

وقيل: لما دخل أحمد على المتوكل قال المتوكل لأمه: يا أماه قد أنارت الدار بهذا الرجل، ثم أتوا بثياب نفيسة فألبسوها له فبكى وقال: سلمت منهم عمري كله حتى إذا دنا أجلي بليت بهم وبدنياهم، ثم نزعها لما خرج.

(5)

يا أحمد أنت اليوم رأس الناس يقتدون بك

عندما يتعرض المسلم لفتنة ويبتليه ربه ليمحصه، يكون من عوامل الثبات أن يقيض الله له رجلاً صالحاً يعظه ويثبته، فتكون كلمات ينفع الله بها، مشحونة بالتذكير بالله، ولقائه، وجنته، وناره.

وللنظر في سيرة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، الذي دخل المحنة ليخرج ذهباً نقياً.

◄ لقد سيق إلى المأمون مقيداً بالأغلال، وقد توعده وعيداً شديداً قبل أن يصل إليه، حتى لقد قال خادم للإمام أحمد: «يعز عليّ يا أبا عبد الله، أن المأمون قد سل سيفاً لم يسله قبل ذلك، وأنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف»[1].

◄ وهنا ينتهز الأذكياء من أهل البصيرة الفرصة ليلقوا إلى إمامهم بكلمات التثبيت، عن أبي جعفر الأنباري قال: لما حُمِل أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، فإذا هو جالس في الخان فسلمت عليه.

فقال: يا أبا جعفر تعنيت.

فقلت: يا هذا، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن خلق، وإن لم تُجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لا بد من الموت، فاتق الله ولا تجب.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله. ثم قال: يا أبا جعفر أعِد..

فأعدت عليه وهو يقول: ما شاء الله[2]...

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير (1/ 332).

(2) السير، للذهبي (11/ 238).

◄ وقال الإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون: (صرنا إلى الرحبة منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟

فقيل له: هذا. فقال للجمال: على رسلك.. ثم قال: يا هذا، ما عليك أن تُقتل ها هنا، وتدخل الجنة ثم قال: أستودعك الله، ومضى).

فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب من ربيعة يعمل الصوف في البادية يقال له جابر بن عامر يُذكر بخير[1].

◄ قال أعرابي للإمام أحمد: (يا هذا، إنك وافد الناس فلا تكون شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل).

قال الإمام أحمد: وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه[2].

◄ وفي رواية أن الإمام أحمد قال: (ما سمعت كلمة وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة الأعرابي كلمني بها في رحبة طوق - وهي بلدة بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات - قال: يا أحمد إن يقتلك الحق متّ شهيداً، وإن عشت عشت حميداً.. فقوي قلبي)[3].

◄ ويقول الإمام أحمد عن مرافقة الشاب محمد بن نوح الذي صمد معه في الفتنة: ما رأيت أحداً - على حداثة سنه، وقدر علمه - أقوم بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد ختم له بخير.

قال لي ذات يوم: (يا أبا عبد الله، الله الله، إنك لست مثلي، أنت رجل يُقتدى بك، قد مد الخلق أعناقهم إليك، لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمر

(1) سير أعلام النبلاء (11/ 241).
(2) البداية والنهاية (1/ 332).
(3) سير أعلام النبلاء (11/ 241).

الله. فمات وصليت عليه ودفنته)[1].

◄ وحتى أهل السجن الذين كان يصلي بهم الإمام أحمد وهو مقيد، قد ساهموا في تثبيه.

فقد قال الإمام أحمد مرة في الحبس: «لست أبالي بالحبس - ما هو ومنزلي إلا واحد - ولا قتلاً بالسيف، وإنما أخاف فتنة السوط» فسمعه بعض أهل الحبس فقال: «لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان، ثم لا تدري أين يقع الباقي» فكأنه سُرِّي عنه[2].

بمثل هؤلاء العظماء يكون الاقتداء.

(6)

بين الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي

اتفق أن الإمام الشافعي بات عند الإمام أحمد رضي الله عنهما. وكانت بنت الإمام أحمد تسمع كثيراً عن الشافعي، وكان أبوها يعظمه جداً، فكانت تودُّ لو رأت الشافعي، فلما نزل عند أبيها فرحت لعلها ترى أفعاله الطيبة العظيمة، أو تسمع أقواله الكريمة.

ولما كان الليل، قام الإمام أحمد إلى الصلاة وذكره كعادته، والإمام الشافعي مستلق على ظهره (نائم على ظهره) والبنت ترقبه إلى الفجر، فجاءت إلى أبيها الإمام أحمد وقالت له: رأيتك تعظم الشافعي، وما رأيت له في هذه الليلة صلاة ولا ذكراً ولا ورداً؛ وبينما هم في الحديث إذ قام الإمام الشافعي، فقال له الإمام أحمد: كيف كانت ليلتك؟ فقال: ما رأيت ليلة أطيب منها، ولا أبرك ولا أربح، فقال: كيف ذلك؟ فقال الشافعي: لأني رتبت في هذه الليلة مائة مسألة وأنا مستلق على ظهري كلها في منافع المسلمين، ثم ودعه ومضى.

---

(1) سير أعلام النبلاء (11/ 242).

(2) سير أعلام النبلاء (11/ 240).

فقال الإمام أحمد بن حنبل لابنته: هذا الذي عمله الشافعي الليلة وهو نائم أفضل مما عملته وأنا قائم.

فالعالم الذي يشتغل بالعلم لينفع الناس أفضل من العابد الذي يعبد ويذكر، وإن طلب العلم قد يفضل العبادة.

وقال الإمام أحمدد رضي الله عنه: ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي.

فقال له ابنه: يا أبت أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء؟.

فقال الإمام أحمد: يا بني، الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، فانظر يا بني هل من هذين خلف؟.

وقال عبد الملك بن عبد الحميد الميموني: كنت عند أحمد بن حنبل وجرى ذكر الشافعي، فرأيت أحمد يعظمه وقال: يروى عن النبي ﷺ: «**إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها**»، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى.

◄ أقام الشافعي في مصر خمس سنين وتسعة أشهر، من 28 شوال سنة (198 هـ) إلى 29 رجب سنة (204هـ) يعلّم الناس، ويؤلف كتبه الجديدة، وينشر مذهبه بين الناس.

وفي ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة (204 هـ)، وبعد العشاء الأخيرة فاضت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بين يدي تلميذه الربيع الجيزي.

وما انتشر خبر نعيه في مصر إلا وقد عم أهلها الحزن والأسى، وخرج الناس من بيوتهم يريدون حمله فوق أعناقهم من شدة هول المصاب.

أصبح يوم الجمعة 30 رجب سنة (204 هـ) ولا حديث للناس إلا طلب الرحمة والرضوان للراحل الكريم، وذهب أهله إلى الوالي، وكان محمد بن السري بن الحكم، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام الشافعي كما أوصى، فقال

لهم الوالي: هل ترك الإمام ديناً؟ قالوا: نعم. فأمر الوالي بسداد ذلك الدين، ثم نظر إليهم وقال لهم: هذا معنى تغسيلي له (أي براءة ذمته من دينه).

◄ ورثى الشافعي خلق كثير يوم وفاته منهم تلميذه المزني، ورثاه أبو بكر محمد ابن دريد بقصيدة عصماء قال فيها:

تسربل بالتقوى وليداً وناشئا ... وخص بلب الكهل مذ هو يافع
فمن يك علم الشافعي أمامه ... فمرتعه في ساحة العلم واسع
سلام على قبر تضمن جسمه ... وجادت عليه المدجنات الهوامع
لئن فجعتنا الحادثات بشخصه ... وهن لما حكمن فيه فواجع
فأحكامه فينا بدور زواهر ... وآثاره فينا نجوم طوالع

ولما آل ملك مصر إلى صلاح الدين الأيوبي سنة (567 هـ) أمر ببناء مدرسة لتدريس مذهب الشافعي بجوار قبره فبنيت (المدرسة الناصرية، أو الصلاحية) نسبة إلى صلاح الدين، ورتبت لها الأساتذة والمدرسون، وأوقفت عليها أرض (جزيرة الفيل) وهي منطقة (جزيرة بدران)، بشبرا الآن.

(7)

الإمام سفيان بن سعيد الثوري

◄ ولد في سنة خمس، وقيل: ست، وقيل: سبع وتسعين للهجرة بالكوفة.

كان رضي الله عنه إماماً في الحديث، وكانوا يسمونه: أمير المؤمنين في الحديث، وأجمع الناس على دينه، وورعه، وزهده، وثقته.

وهو أحد الأئمة المجتهدين. قال سفيان بن عيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

وقال مالك: كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بالعلم منذ جاء سفيان الثوري.

وقال الخطيب: كان سفيان الثوري إماماً من أئمة المسلمين، وعلماً من

أعلام الدين، مجمعاً على إمامته بحيث يستغنى عن تزكيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد. وكان يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل حتى يضربه الجوع شغلاً عنه بما هو فيه من العبادة. وكان لا يجلس في صدر مجلس قط؛ إنما يقعد جنب حائط يجمع بين كتبه.

وكان ﷺ جريئاً على الخلفاء والأمراء لا يخشى في الحق لومة لائم.

سفيان الثوري والمهدي

ذكر المسعودي في مروج الذهب ما مثاله: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وأتى سفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة، ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه، يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال له:

يا سفيان تفرّ منا هاهنا وهاهنا وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال سفيان: إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل.

فقال الربيع: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ ائذن لي في أن أضرب عنقه.

فقال له المهدي: اسكت، ويلك! وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم.

امتناعه عن قضاء الكوفة

فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج، فرمى به في دجلة وهرب، فطلب في كل بلد، فلم يوجد، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبد الله النخعي قال الشاعر:

تحرّز سفيان وفرّ بدينه وأمسى شريك مرصداً للدراهم

وكان يقول للمهدي في وجهه: احذر من هؤلاء الأعوان والمترددين إليك

من الفقراء، فإن هلاكك على أيديهم، يأكلون طعامك، ويأخذون دراهمك، ويغشونك، ويمدحونك بما ليس فيك.

سفيان الثوري وأبو جعفر المنصور

بعث أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين الخشابين أمامه حين خرج إلى مكة وقال: إذا رأيتم سفيان الثوري فاصلبوه. فوصلوا إلى مكة ونصبوا الخشب ورجاءوا إليه، فوجدوه نائماً رأسه في حجر الفضيل بن عياض ورجلاه في حجر سفيان بن عيينة، فقالوا: يا أبا عبد الله اتق الله، ولا تشمت بنا الأعداء، فتقدم إلى ستار الكعبة فأخذها وقال: برئت منه إن دخلها أبو جعفر، فمات قبل أن يدخل مكة.

(8)

الإمام علي زين العابدين

يحكى أن هشام بن عبد الملك حج في حياة أبيه، فطاف بالبيت وجهد أن يستلم الحجر الأسود فلم يصل إليه لكثرة الزحام، فنصب له منبر إلى جانب زمزم في الحطيم وجلس عليه ينظر إليه الناس وحوله جماعة من أهل الشام.

فبينما هم كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما يريد الطواف، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى الناس له حتى استلم الحجر.

فقال رجل من أهل الشام:

من هذا الذي هابه الناس هذه المهابة فتنحوا عنه يميناً وشمالاً؟

فقال هشام: لا أعرفه، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق الشاعر المشهور حاضراً فقال للشامي: أنا أعرفه. فقال: من هو يا أبا فراس؟ فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

هـذا ابـن خـيـر عـبـاد الله كـلـهـم ... هـذا التـقـي الـنـقـي الـطـاهـر الـعـلـم
هـذا ابـن فـاطـمـة إن كـنـت جـاهـلـه ... بـجـده أنـبـيـاء الله قـد خـتـمـوا
مَـن جـدّه دان فـضـل الأنـبـيـاء لـه ... وفـضـل أمـتـه دانـت لـه الأمـم
الـلّـه شـرفـه قـدراً وعـظّـمـه ... جـرى بـذاك لـه فـي لـوحـه الـقـلـم
سـهـل الـخـلـيـقـة لا تـخـشـى بـوادره ... يـزيـنـه اثـنـان حـسـن الـخَـلـق والـشـيـم
حـمّـال أثـقـال أقـوام إذا اقـتـرضـوا ... حـلـو الـشـمـائـل تـحـلـو عـنـده نـعـم
إذا رأتـه قـريـش قـال قـائـلـهـا ... إلـى مـكـارم هـذا يـنـتـهـي الـكـرم

(9)

الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن

◄ الإمام الليث بن سعد هو الإمام الكبير القدر، المعظم الشأن في الدين والعلم والكرم. يقال: إنه مولى بني فهم.

قال الحسن بن سعيد: خرجنا مع الليث بن سعد إلى الإسكندرية ومعه ثلاث سفائن: سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه، فقلنا: يا سيدي إنا نسمع منك أحاديث ليست في كتبك.

فقال: أَوَ كل ما في صدري في كتبي؟ لو وضعت ما في صدري في كتبي ما وسعته هذه السفينة.

وقال يحيى بن بكير: رأيت الفقراء يزدحمون على باب الليث بن سعد وهو يتصدق عليهم حتى لم يبق أحد منهم، حتى مشى وأنا معه على سبعين بيتاً من الأرامل، ثم انصرف.

فمشيت معه فبعث غلامه بدرهم فاشترى زيتاً وخبزاً، ثم جئت إلى بابه فرأيت أربعين ضيفاً جاء إليهم باللحم والحلوى؛ فلما أصبحت قلت لغلامه: بالله عليك لمن الخبز والزيت؟ فقال: يطعم ضيفانه اللحم والحلوى، وما رأيته يأكل إلا خبزاً وزيتاً.

وقال يحيى بن بكير عن ابن وهب: دخلت على مالك فسألني عن الليث فقال: كيف هو؟

فقلت: بخير. قال: كيف صدقه؟ قلت: يا أبا عبد الله إنه لصدوق.

قال: أما إنه إن فعل متعه الله بسمعه وبصره.

وقال أحمد بن حنبل: الليث كثير العلم صحيح الحديث.

وقال يحيى بن بكير: ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث بن سعد، وما رأيت أكمل منه، كان فقيه البلد، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر، والمذاكرة، إلى أن عدّ خمس عشرة خصلة ما رأيت مثله. وقال أيضاً: الليث أفقه من مالك، ولكن كانت الحظوة لمالك.

ولما أتى الشافعي مصر أتى قبر الليث بن سعد وقال: ما فاتني شيء كان أشد عليَّ من ابن أبي ذئب والليث بن سعد.

وروي أن الإمام الشافعي وقف على قبر الإمام الليث وقال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم: العلم، والعمل، والزهد، والكرم.

وقال أيضاً: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وفي رواية عن الشافعي: ضيّعه قومه، وفي أخرى: ضيعه أصحابه، أي لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك وغيره.

وقال النووي في تهذيبه: لولا مالك والليث لضللنا. وقال أيضاً: والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث.

◄ قالوا: إن الأمراء بمصر كانوا لا يقطعون أمراً دون الليث وكانوا يحترمونه ويعظمونه.

وقال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث أربعة مجالس كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث. ومجلس لأصحاب المسائل، ومجلس لحوائج الناس، لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أو كبرت.

◄ قال (لولو) خادم الرشيد: جرى بين هارون الرشيد وبنت عمه زبيدة بنت

جعفر كلام. فقال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم، فجمع الفقهاء فاختلفوا، ثم كتب إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه. فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا؛ وبقي شيخ لم يتكلم، وكان في آخر المجلس، وهو الليث بن سعد، قال: فسأله، قال: إذا خلّى أمير المؤمنين مجلسه كلمته، فصرفهم، فقال: يدنيني أمير المؤمنين - فأدناه، فقال: أتكلم عليَّ الأمان؟ قال: نعم، فأمر بإحضار مصحف، فأُحضر فقال: تصفّحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمٰن فاقرأها، ففعل، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. قال: أمسك يا أمير المؤمنين، قل والله، فاشتد ذلك على هارون؛ فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك، فقال والله حتى فرغ اليمين، قال: قل إني أخاف مقام ربي، فقال ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، فهي جنتان وليست بجنة واحدة.

قال: فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر. فقال له الرشيد: أحسنت يا أبا الحارث وأمر له بالجوائز والخلع، وأمر له بإقطاع الجيزة، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره، وصرفه مكرماً.

وقيل: إن الرشيد أمر له بخمسة آلاف دينار فردها وقال: ادفعها لمن هو أحوج إليها مني.

قال عبد الله بن صالح: سمعت الليث بن سعد يقول: لما قدمت على هارون الرشيد قال لي: يا ليث ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا إجراء النيل، وصلاح أميرها. ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت العين. قال: صدقت يا أبا الحارث.

(10)

الإمام أبو عمرو الأوزاعي

◄ هو أبو عمرو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي نسبة إلى (أوزاع) وهي قرية بالشام، ولد في (بعلبك) سنة ثمان وثمانين وقيل: سنة ثلاث وتسعين.

◄ نشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد إلى أن بلَّغته حيث رأته، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع، ولا أعلم، ولا أنصح، ولا أوقر، ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من يسمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

علمه ومكانته

◄ كان رضي الله عنه عالماً ساد أهل زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي، وغير ذلك من علوم الإسلام، وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين كمالك بن أنس، والثوري، والزهري، وهو من شيوخه.

وكان رضي الله عنه من الطبقة الأولى من مجتهدي الإسلام، لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة: أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل رحمهم الله جميعاً.

وكان رحمه الله إمام أهل الشام بإجماع المؤرخين، وتبعاً لانتشار مذهبه في الشام انتشر في الأندلس، وأول من أدخله فيها صعصعة بن سلام لما انتقل إليها.

ويقال: إن أهل الشام لبثوا يعملون بمذهب الأوزاعي في الفقه نحواً من مائتين وعشرين سنة إلى أن غلب عليهم مذهب الشافعي؛ وإن أهل الأندلس لبثوا يعملون به إلى زمن الأمير هشام بن عبد الرحمٰن الأموي إلى أن غلب مذهب مالك على تلك الديار.

ولم يكن الأوزاعي عالماً كباقي العلماء؛ بل كان عالماً وعاملاً يطبق العلم على العمل، ولا يكتفي بالحفظ والنظر.

عبادته وورعه

◄ وكان ممن يهمه أمر الأمة بأجمعها، وممن لا يقتصر على الصلاة والعبادة مبتغياً بها رضا الله تعالى، والنجاة بنفسه دون السعي لتوزيع العدالة في خلقه،

وإراحة عباد الله أجمعين، بل كان مع شدة ورعه، وكثرة عبادته يعمل بالحديث الشريف: «**عدل ساعة خير من عبادة ألف شهر**».

ولهذا كان مالك ﷺ يقول عن الأوزاعي: إنه يصلح للإمامة.

وكان أبو إسحٰق الفزاري يقول: الأوزاعي رجل عامة، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي، أي إماماً وخليفة.

سياسته ونصحه للملوك والخلفاء

◄ لقد كان ﷺ يتعرض للسياسة العامة، وينصح للملوك والخلفاء، ويغلظ لهم القول إذا رأى من أعمالهم ما يضر بالأمة، وكان على ما يوجبه الإسلام من إيتاء كل إنسان حقه بدون تمييز بين الأديان والمذاهب.

وبالجملة فقد كان الأوزاعي من أحسن الأمثلة المجسمة البارزة عن معالي الإسلام، الدالة على أنه دين العدل والإحسان، دين المحافظة على حقوق الأنام.

كرمه وسخاؤه

◄ كان ﷺ من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال من الخلفاء إقطاع، صار إليه من بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، وكان ينفقها كلها ولا يدخر منها شيئاً، وكان أكثر إنفاقه في سبيل الله، وعلى الفقراء والمساكين.

شجاعته وجراءته

◄ كان ﷺ من الجراءة على الخلفاء والأمراء ما يقل نظيره في تاريخ الإسلام، ولعمري لو كان العلماء الذين من صنف الأوزاعي عدداً كبيراً في الإسلام لما أسرع الفساد إلى المجتمع الإسلامي، ولما انحطت دول الإسلام بعد ذلك العلو في الأرض.

وقلَّ في الإسلام من كان يصادم الخلفاء في مآربهم ويوبخهم في وجوههم،

ونذكر بعضهم: وذلك مثل عالم المدينة أبي الحارث محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ذئب العامري الزاهد الورع الذي قال للمنصور يوماً: الظلم ببابك فاشٍ.

ومثل أحمد بن نصر الخزاعي الشهير الذي كان قَوّالاً بالحق، أمّاراً بالمعروف، وقتله الواثق بالله لكونه أغلظ له في الحق وقال له: مه يا صبي.

ومثل أحمد بن حنبل الذي خاصم المأمون في مسألة خلق القرآن ولم يتزحزح عن قوله رغم كل ما أصابه.

ومثل أبي حنيفة النعمان الذي تعرض للعذاب ولم يقبل القضاء.

ومثل القاضي مصعب بن عمران الذي أراده الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية على قضاء قرطبة والأندلس فأبى أشد الإباء وأصر عليه الأمير إلى حد الغضب وبقي على إصراره.

ومثل قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة أبي عبيد بن حربويه الذي كان أمير مصر يركب إلى داره، وهو لم يكن يركب إلى دار الأمير.

الأوزاعي وأبو جعفر المنصور

◄ اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين قدم الشام ووعظه فأحبه المنصور وعظمه، ولما أراد الانصراف من بين يديه استأذنه ألا يلبس السواد فأذن له.

فلما خرج المنصور قال للربيع (الحاجب): الحقه فاسأله لِمَ كره لبس السواد؟ ولا تعلمه أني قلت لك. فسأله الربيع، فقال: لأني لم أرَ محرماً أحرم فيه، ولا ميتاً كفن فيه، ولا عروساً جليت فيه، فلهذا أكرهه.

وكتب أبو جعفر المنصور إلى الأوزاعي الكتاب الآتي:

أما بعد، فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ما جعل الله لرعيته قبلك في عنقه، فاكتب إليه بما رأيت فيه المصلحة.

فكتب الأوزاعي إليه:

أما بعد فعليك يا أمير المؤمنين بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وتواضع يرفعك الله تعالى يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق.

واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله تعالى عليك إلا وجوباً.

وكتب أيضاً الأوزاعي إلى أبي جعفر المنصور كتاباً طويلاً ابتدأه بقوله:

أما بعد، فإن الله تعالى استرعاك هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائماً، وبنبيه ﷺ في خفض الجناح والرأفة متشبهاً. وختمه بقوله: يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام بحق الله، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، إن من طلب العز بطاعة الله تعالى رفعه الله تعالى، ومن طلبه بمعصية أذله الله ووضعه، هذه نصيحتي إليك، والسلام عليك.

obeikandl.com